المعرفة التقريبية

بقلم الدكتور عبدالله عبدالدائم

اذا تتبعنا آفات حياتنا الاجتماعية وجدناها عديدة دون شك . واذا حاولنا بعد ذلك ان نتلمس اسباب هذه الافات وجدناها ايضا اكثر عدة . غير ان اشتباك الافات وكثرة الاسباب ينبغي الا تصرفنا عن التماس بعض الافات البارزة والاشارة الى بعض الاسباب التي تجأر اكثر من غيرها . لاسيما ان بعض هذه الافات وتلك الاسباب جامع لغيره ، وما الآفات الاخرى والاسباب الباقية في كثير من الاحيان سوى نتائج او هوامش له .

ولا شك ان الافة الجامعة المفسرة لكل فساد اجتماعي هي افة الفكر . وما اخطأ عالم الاجتماع « أوغست كونت » عندما زعم ان الفساد الخلقي والفساد الاجتماعي في عصره يرجعان الى فساد أداتهما ، نعني التفكير . وما اخطأ ابن خلدون كذلك حين تبين قبله مايؤدي اليه الانصراف عن تحكيم العقل من خطل في الرأي وزيف في ادراك الحقائق الاجتماعية العمرانية . وما كان المفكرون الا مجمعين دوما على ان أنقاذ الحياة الاجتماعية يكون بانقاذ الفكر الموجه لها ، وان الفكرة قوة ، وان استقامتها هو الذي يؤدي الى استقامة طبيعة الحياة الاجتماعية . وهم مافتئوا يرددون أن الحياة الاجتماعية صورة عن الفكر عندما يتحرك ويعمل وينقلب الى كيان واقعي ملموس وتنظيم محسوس .

ونحن اذ نقرر هذه الحقيقة نعيد قولا مكررا دون شك . وما هدفنا في هذه الكلمة أن نؤكد من جديد اثر الفكر عامة في بنيان المجتمع . وما نريد جانب من جوانب هذا الامر ، وهو الاشارة الى افة صارخة من افات هذا الفكر ، تنقلب الى افات جتماعية قاتلة ، وتشتق منها أكثر مفاسد الحياة الاجتماعية . هذه الافة هي التي نحب أن ندعوها باسم « التفكير التقريبي » او « المعرفة التقريبية » . فنحن اذا تساءلنا عن كثير من أسباب الضعف في مؤسساتنا الاجتماعية ونظمنا القائمة ، وجدناها ثاوية في طراز من الفكر شائع لدينا هو الفكر الفضفاض ، الفكر المجانب للدقة ، المكتفي بالشيء التقريبي في كل شيء .

فأحكامنا أولا على مجتمعنا ليست كما نعلم احكاما مستندة الى معرفة دقيقة بواقعه ووصف صادق لما فيه . فنحن نجهل الكثير من الامور المتصلة بأجهزة هذا المجتمع ، ولا نملك الاحصاءات الدقيقة والوثائق الصريحة عن كثير من مشكلاته . وكلنا يعلم فقر المعلومات الدقيقة التي نملكها عن مشكلة كالتعليم أو مشكلة كالفقر او مشكلة كالزراعة او أخرى كالزواج او مسألة كالاراضي وتوزيعها او الفلاحين واوضاعهم او الدخل الفردي و غير تلك من المشكلات العديدة .

ولهذا كانت ابحاثنا في مثل هذه المشكلات ابحاثا غائمة غامضة ، نستند فيها الى القول العابر والرأي الخاطر او الرواية والسماع ، أو العاطفة والهوى . ومن الامور التي لاتحتاج الى بيان في أيامنا ، أن بداية البحث في أي أمر معرفته معرفة واضحة نيرة . فهذه المعرفة الواضحة النيرة ، هي تعريف له ، ولا يجوز الحديث عن شيء ما لم نعرفه اولا . وكل بحث مستند الى مفهوم خاطىء أو ناقص نكونه عن الشيء المبحوث ، بحث فاشل من اساسه . ومن هنا كثرت المنازع والاراء في فهم أمورنا الاجتماعية وتصويرها . فحيث يكون الشيء المتحدث عنه غائم الهوية مطموس المعالم ، يكون الافتراق وتكون الشيع والمذاهب .

والخلاف بين الناس ينشأ غالبا عن غموض المفاهيم التي يتنازعه من حولها . وكثيرا ما يختلفون حول امر ، لا لانهم يرون فيه آراء مختلفة فعلا ، ولكن لان كلا منهم يدرك منه مالا يدرك الاخر في الاصل ، ويعرفه خلاف تعريف غيره .

وينشأ هذا الغموض في المفاهيم في اكثر الاحيان بسبب الاستقراء الناقص فأكثر الناس يكونون رأيا عن امر من الامور بنتيجة معرفة محدودة أصابوها لبعض جوانبه ، وقلما يملكون معرفة كاملة لبعض جوانبه . فهذا يتحدث عن مشكلة الفقر استنادا الى بعض الحالات المحدودة التي رآها ، وذاك يتحدث عن الاقطاعية استنادا الى بعض المشاهدات الجزئية التي يسرت له ، وثالث يتحدث عن الزواج من خلال تجربته الشخصية المحدودة وهكذا ..

ولا شك أن الافراد عاجزون غالبا عن الاستقراء التام والدراسة الكاملة للمشكلات الاجتماعية . ومثل هذه المهمة موكولة طبعا الى الحكومات والمؤسسات العلمية والمنظمات الاجتماعية .

غير ان الافراد مدعوون بدورهم الى اقتناء هذه الدراسات الكاملة والسؤال عنها ، بل الى القيام بها ان كانوا ممن تؤهلهم ظروفهم لمثل هذا العمل . وايا كانت الحال فالشيء الاول المطلوب منهم ، هو هذا الاستمساك بالدقة

وطلبها اني وجدوها ، وهذا الاخذ بأسباب المعرفة الدقيقة والعزوف عن المعرفة التقريبية . أن ماتطلبه منهم موقف فكري وخلقي يجعلهم يقفون من الامور موقفا جديا صادقا فلا يهرفون بمالا يعرفون ، ولا يرضون بالرأي الفطير والمعرفة القاصرة والكلام القضيب وانما يتجاوزون ذلك كله الى فضول علمي لايرضى عن الدقة بديلا .

وواضح ان مثل هذا الموقف الفكري موقف خلقي في الوقت نفسه . فهو يفصح عن صدق في محاسبة النفس ، وعن اخلاص للحقيقة هو رأس الفضائل . وهو موقف ينفي ان يكون التفكير بهلوانية فارغة ، او محاولة للغلبة ومقارعة الخصوم ، ويجعل منه شيئا مقوما للانسان الحق، الانسان الصادق لا الزائف .

ثم ان هذا الموقف ايضا موقف اجتماعي أمين ، اذ يؤدي كما بينا الى البحث في الامور الاجتماعية بحثا مستندا الى الواقع لا الى العاطفة والهوى ، والى توجيه هذه الامور الاجتماعية بالتالي توجيها قائما ايضا على أساس صحيح ، لا على أساس من الرغبة في التشيع لرأي مبيت او الانتصار لمذهب معين . وأحوج مانحتاج اليه في مجتمعنا العربي اصلاح من هذا النوع : اصلاح مبني على علم دقيق بما نصلح ومعرفة صحيحة بأوصاف الظواهر التي نتصدى لتغييرها.

واخيرا هذا الموقف الذي نطلبه ، موقف النائي عن التقريب الطالب للدقة ، هو موقف نفسي عام الى جانب كونه موقفا خلقيا واجتماعيا . فهو يسم صاحبه بوسم من يملك شخصية محكمة واضحة المعالم منسجمة الاتجاه، ويبعده عن ان يكون ذا شخصية منقسمة على ذاتها ، ترى في هذا عكس ماتراه في ذاك ، وتقبل باجتماع الافكار المتضاربة بل المتناقضة. فالنتيجة الطبيعية للتفكير التقريبي ان يكون شخصية تقريبية اي شخصية لا كالشخصيات ، ليس فيها وحدة الاتجاه وانسجام القصد . والذي يميز الكائن الانساني قبل كل شيء أنه كائن ذو هدف وقصد ، وكلما كان هذا الهدف والقصد واضحا محددا كان الكائن اقرب الى الانسانية واطول باعا فيها . أما اذا كان هذا القصد غامضا مشتتا لايتصف بالوحدة والانسجام ، كانت الشخصية الانسانية ضعيفة هزيلة وكان سلوكها ادنى الى الحيوانية . وانسجام القصد ووحدته يتأتيان قبل كل شيء من وضوح المعاني في النفس وقرار الفكرة فيها . ومثل هذا الوضوح وذلك القرار يكونان عندما يلتمس الشخص الدقة فيما يبحث، ويجانب الرأي التقريبي الغامض!

يضاف الى هذا أن الموقف التقريبي هو الذي يمنع الشخصية من أن تكون ذات طابع اصيل ، ويجعلها حائلة اللون عديمة الطعم . انه هو الذي يؤدي بصاحبه الى ان يكون فاترا ، لايمثل نموذجا نفسيا واضحا ذا اثر في الاخرين . وشر الامور الفاتر الذي لا يبقي في النفوس بقية ولا يحدث فيها صدى .

يقول الجاحظ : « وانما الكرب الذي يخيم على القلوب ويأخذ بالانفاس النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا باردة. وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط . وأنما الشأن في الحار جدا والبارد جدا . »

وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول : « والله لفلان أثقل من مغن وسط ، وأبغض من ظريف وسط . »

وكلنا يعلم أن العقول المؤثرة التي تخلف صدى فيمن حولها وفيما حولها ، وتستطيع ان تبادر الى الاصلاح عازمة فيه ، هي العقول الحارة التي لاتحمل الوهن والفتور ، والتي تنتسب الى تلك النفوس المتسمة بطابع واضح، بمعالم بينة ، باتجاه صارم . ومثل هذا الوضوح في الطابع هو ايضا وليد الفكر الدقيق وعدو الفكر التقريبي . فالفكر التقريبي هو الذي ينتهي بصاحبه الى الفتور ، بل الى عدم الاكتراث . والفكر الواضح النير هو الذي ينقلب الى عمل هاد والى سلوك واثق .

من هذا كله نرى مالتربية الفكر على أصول الدقة من شأن في حياتنا الاجتماعية . فهو الذي يمكن من فهم هذه الحياة اولا على حقيقتها . وهو الذي يتيح لنا ثانيا ان نبحث مشكلاتها بحثا مستندا الى علم بأصولها وواقعها ، بدلا من البحث اللدني الاعتباطي . وهو الذي يجعلنا قادرين بعد ذلك على توجيه هذه الحياة الاجتماعية واصلاحها اصلاحا يمكن أن يرسخ ، لان له جذورا علمية دقيقة . وهو الذي يمتعنا اخيرا بموقف خلقي مبدع وبموقف نفسي يتسم بالحدة ، حدة العلم ، وبالوضوح ، وضوح المعرفة العلمية ، ويخلف وراءه أثرا هو أثر النفوس المتميزة بطابع بين ، البعيد عن الفتور المقيت ، العاطل عن التأثر والتأثير .

أن مثل هذه التربية التي تعلم الفكر الا يلجأ الى « التقريب » الكسول ، وان يعزف عن قبول كلمة « تقريبا» تجعل الانسان مخلصا لرسالته على وجه الارض ، رسالة البحث عن الحقيقة ، وتجعله يشعر باصالة وجوده ، بل بحرارة وجوده ، وتملأ نفسه احتراما لذاته ، واحتراما لافكاره،وبذلك تكون منه الانسان الصالح للحياة الاجتماعية. انها تهديه الى طريقه ، والاهتداء الى الطريق في الحياة ليس بالامر الهين .

فهو ضالة قلما يصل اليها الناس ، وهو أساس السلامة النفسية والاجتماعية . وكم من اضطراب نفسي ، بل كم من مريض نفسي ، كان وليدا لافتقار المرء طريقه في الحياة وضلاله بين شتيت التيارات . وكم من فوضى اجتماعية بل كم من فوضى قومية ، كانت وليدة افتقار المجتمع خطته الموجهة وهدفه المنشود ، وبحثه حائرا عن غاية يصب فيها جهوده ، ودورانه في فراغ حول ذاته دورانا يؤدي الى أستشراء كل الافات والعلل فيه. فالمجتمع كالفرد يغدو نهبا للتفكك والعلل عندما يجتر ذاته ، دائرا حولها ، بدلا من ان يوجه جهوده الى انتاج عملي يخرج عنها . ومثل هذا الاجترار للذات قدر محتوم على من جهل

خطته وغايته ، حين استرسل الى الغموض ورضي بالمعرفة التقريبية في كل شيء .

ان الطفل كما نعلم ، يرضى بالمعرفة التقريبية ، غير ان عليه ان يجاوز هذه المعرفة التقريبية عندما يشب عن الطوق ، وان يبحث بعدها عن الدقة والتمام . ومعنى ذلك ان الراشد الذي يقبل بان يظل في طور « التقريب » يقبل بان يظل في طور الطفولة . ومثله المجتمع فهو يظل في طفولة دائمة ، ان لم يجاوز هذا الغموض الناجم عن المعرفة التقريبية لمشكلاته . ولا يصل المجتمع الى مرحلة النضج والرشد ، الا حين يقبل على دراسة قوامها الدقة ، محاولا أن يرسم صورة واضحة مفصلة لكل مافيه ، مجربا ان يقدم الوثائق الكاملة والاحصاءات التامة عن أحواله . وكلنا يعلم أن الفرق بين المجتمع الطفل العامي والمجتمع العالم المتقدم هو ان الاول لايعنى بدراسة مظاهر الكون والمجتمع دراسة ممحصة ، بينما يفحص الثاني كل مجالي الطبيعة والمجتمع،ويجري وراء حقائقهما،ولا يدع صغيرة ولا كبيرةالا ويحصيها،ويقلب الامورعلى وجوهها حتى لايبقى فيها بقية ، وتاريخ الانسانية ، تاريخ العلم ، اكبر شاهد على هذه الحقيقة : فالانسان لم يتقدم الا حين ترك مبدأ « التقريب » وجرى شطر مبدأ الدقة . والمبدعون لم يبدعوا الا حين أشتغلوا بالتساؤل عن كل شيء وحين طرحوا مشكلات يخالها الانسان العادي ليست في حاجة الى مزيد من البحث والتمحيص .

وان كان لهذا الموقف الذي نشير اليه ، موقف المعرفة التقريبية ، خطره في كل عصر ومصر ، فهو خطير في بلادنا خاصة ، حيث نجد الاسراف في القول افة غالبة ، وحيث نجد الغلو في الوصف من الخصال المحمودة في نظر بعض الناس ، وحيث نجد القصد والدقة من صفات قليل القليل من الناس .

افلا يفهم بعضنا البلاغة على انها التهويل في وصف الحقائق والبعد عن الدقة في الحديث عنها ؟ افلا يخيل اليهم ان فن القول يكون بالغلو والافراط في الكلام الفضفاض العريض ؟ افلا يظنون أن اعذب الشعر اكذبه وان اطيب الادب بعده عن الواقع واعرقه في متن الخيال ؟

ويطول بنا الحديث ان نحن اردنا استعراض اثار هذا الفكر التقريبي في شتى المجالات . وحسبنا أن اشرنا في هذه اللمحة الى بعض ملامحه ومخاطره ، وان كان تقويم الفكر كما قلنا في البداية اساس تقويم الحياة الاجتماعية ففي الدعوة الى تقويم هذا الفكر التقريبي ، والى سلوك مسلك الدقة الرياضية في أحكامنا وابحاثنا ، دعوة الى شيء أساسي في بناء كياننا الاجتماعي المتخبط .

دمشق — **عبدالله عبدا الدائم**

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات
في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الاداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣